يقول الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :

[فصلٌ (غزوة بدر الكبرى) يُذكر فيه ملخص وقعة بدر الثانية ؛ وهي الوقعة العظيمة التي فرَق الله فيها بين الحق والباطل وأعز الإسلام ودمغ الكفر وأهله ، وذلك أنه لما كان في رمضان من هذه السنة الثانية بلغ رسول الله ﷺ أن عيراً مقبِلة من الشام صحبة أبي سفيان صخر بن حرب في ثلاثين أو أربعين رجلاً من قريش ، وهي عير عظيمة تحمل أموالاً جزيلة لقريش ، فندب ﷺ الناس للخروج إليها وأمر من كان ظهره حاضراً بالنهوض ، ولم يحتفل لها احتفالاً كثيراً ، إلا أنه خرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً لثمانٍ خلون من رمضان ، واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر واستعمله على المدينة] .

****

هذا فصل عقده الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى لذكر ملخص عن غزوة بدر الكبرى ، وتسمى هذه الغزوة : «غزوة بدر الكبرى » ، وتسمى أيضاً « غزوة بدر العظمى » ، وتسمى أيضاً «غزوة بدر الثانية» ، وأيضاً يقال لها «يوم الفرقان» ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال:٤١] سماها الله ﷻ بذلك وذلك أنه ﷻ فَرَق فيها بين الحق والباطل والهدى والضلال ، وهذا أشار إليه ابن كثير رحمه الله بقوله : ((**وهي الوقعة العظيمة التي فرق الله بها بين الحق والباطل وأعز الإسلام ودمغ الكفر وأهله**)) .

قال رحمه الله : ((**وذلك أنه لما كان في رمضان من هذه السنة الثانية بلغ رسول الله ﷺ أن عيراً مقبلة من الشام صحبة أبي سفيان صخر بن حرب في ثلاثين أو أربعين رجلاً من**

قريش وهي عير عظيمة تحمل أموالاً جزيلة لقريش)) ؛ عِيراً : بكسر العين ومنه قوله ﷻ : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] ، والعير : هي القافلة والإبل التي يحمل عليها التجارة والمتاع . فأقبلت قافلة تجارية كبيرة جداً قادمة من الشام متجهة إلى مكة تحمل تجارات لكفار قريش صحبة أبي سفيان صخر بن حرب .

قال : ((**فندب ﷺ الناس للخروج إليها**)) ؛ أي : للخروج لهذه العير .

((**وأمر من كان ظهره حاضراً بالنهوض**)) أي : من كان منهم مركوبه حاضراً موجوداً عنده ينطلق مع النبي ﷺ لمقابلة هذه العير .

قال : ((**ولم يحتفل لها احتفالاً كثيراً**)) ؛ أي : لم يهتم بالتهيئة والإعداد وإنما قال : من كان ظهره حاضراً موجوداً فلينطلق معنا ، حتى إن بعض الصحابة ذكروا له أن ظهورهم في عالية المدينة وطلبوا الإذن بأن يذهبوا لإحضارها حتى يشاركوا النبي عليه الصلاة والسلام فلم يأذن ، كما جاء في صحيح مسلم قال : ((فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا)) ، وهذا أيضاً مما يوضح أنه عليه الصلاة والسلام لم يهتم اهتماماً بالغاً بجمع الرجال وجمع العتاد وجمع الظهور التي تُركب ، ولما انطلقوا كان الثلاثة يتعاقبون على البعير الواحد .

قال : ((**إلا أنه خرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً لثمانٍ خلون من رمضان**)) ؛ فهذا الخروج المبارك لهذه الملاقاة ولهذه المعركة كان في السابع عشر من شهر رمضان المبارك ، وكان صيامهم له هو الصيام الأول ، لأنه فُرض في شعبان من السنة الثانية ، أي قبيل هذه الوقعة بشهر واحد ، وقيل في رجب كما سبق أن مر معنا .

قال : ((**واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم**)) ؛ رضي الله عنه وأرضاه ، مؤذن النبي ﷺ .

((**فلما كان بالروحاء**)) بئر معروفة بعد مرحلتين أو أكثر من المدينة ((**رد أبا لبابة ابن عبد المنذر واستعمله على المدينة**)) .

قال رحمه الله :

[ولم يكن معه من الخيل إلا فرسان ؛ فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي ، ومن الإبل سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة فأكثر على البعير الواحد ، فرسول الله ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً ، وزيد بن حارثة وأنسة وأبو كبشة موالي رسول الله ﷺ يعتقبون جملاً ، وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف على جمل آخر، وهلُمَّ جرا] .

****

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن الصحابة ﷺ في هذه الغزوة لما انطلقوا إليها لم يكن معهم ما يركبونه ؛ فكان الثلاثة والأكثر يعتقبون على الجمل أو البعير الواحد ، ومن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام جعل شأنه ﷺ مثل أصحابه في هذا الأمر ، هو ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنهما كانوا يعتقبون بعيراً واحدا ، حتى إن علياً ومرثد رضي الله عنهما –كما جاء في بعض الروايات – قالا للنبي ﷺ : "يَا رَسُولَ اللهِ ارْكَبْ نَمْشِ عَنْكَ" يعني أردوا أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام يستمر راكباً ويكفيانه المشي ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّكُمَا لَسْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي ، وَلَا أَرْغَبُ عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا)) ؛ فلم يقبل عليه الصلاة والسلام ذلك بل مضى مثله مثلهم يعتقبون على البعير الواحد ، وكان عددهم يزيد على الثلاث مئة وليس معهم إلا سبعين بعيراً ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، وسيأتي معنا قريباً عدد الإبل وعدد الخيل التي مع كفار قريش ، وأيضاً عدد الرجال الذين معهم .

قال رحمه الله :

[ودفع ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير ، والراية الواحدة إلى علي بن أبي طالب ، والراية الأخرى إلى رجل من الأنصار ، وكانت راية الأنصار بيد سعد بن معاذ ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة] .

****

قال : ((**ودفع ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير، والراية الواحدة إلى علي بن أبي طالب ، والراية الأخرى إلى رجل من الأنصار**)) ؛ يعني يكون هناك عدة رايات ، لأن الجيش يقسَّم

إلى أقسام ، وكل قسم ينضوي تحت راية ، والجميع ينضوون تحت اللواء . فاللواء كان بيد مصعب ابن عمير ، والرايات قسَّمها : بيد علي ﷺ راية ، وبيد رجل من الأنصار راية ، ((**وكانت راية الأنصار يومئذ بيد سعد ابن معاذ**)) .

((**وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة**)) ؛ ساقة الجيش : أي مؤخرة الجيش ، جعل فيه قيس ابن أبي صعصعة .

قال رحمه الله :

[**وسار ﷺ فلما قرب من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهني وهو حليف بني ساعدة ، وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتحسسان أخبار العير**] .

****

قال : ((**وسار ﷺ فلما قرب من الصفراء**)) ؛ الصفراء : وادي يبعد عن المدينة قرابة الخمسين كيلو مترا .

لما وصل ﷺ إلى هذا الوادي ((**بعث بسبس بن عمرو الجهني وهو حليف بني ساعدة ، وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتحسسان أخبار العير**)) ؛ أرسلهما إلى جهة بدر يتقدمان للتحسس أي : التحري والترصد ومعرفة الأخبار المتعلقة بالعير أين وصلت ، وفي أي مرحلة هي .

قال رحمه الله :

[**وأما أبو سفيان فإنه بلغه مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم ليمنعوه من محمد وأصحابه ، وبلغ الصريخ أهل مكة فنهضوا مسرعين وأوعبوا في الخروج ، ولم يتخلف من أشرافهم أحدٌ سوى أبي لهب ، فإنه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دَيْن ، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحدٌ من بطون قريش إلا بني عدي فلم يخرج معهم منهم أحد . وخرجوا من ديارهم كما قال الله ﷻ** : ﴿ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال:٤٧] **وأقبلوا في تجمل وحنق عظيم على رسول الله ﷺ وأصحابه لما يريدون من أخذ عيرهم ، وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي والعير التي كانت معه ، فجمعهم الله على غير ميعاد لما أراد في ذلك من الحكمة كما قال تعالى :** ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال:٤٢]] .

****

((**وأما أبو سفيان فإنه بلغه مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه**)) ؛ أي قصده لهذا العير القادم بهذه التجارة من جهة الشام .

فما كان منه إلا أن ((**استأجر ضمضم ابن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم**- أي : مستفزعاً إياهم وطالباً منهم أن يقدموا لنصرة هذا العير الذي يحمل تجارتهم – **ليمنعوه من محمد وأصحابه**)) فانطلق ضمضم إلى قريش .

((**وبلغ الصريخ أهل مكة فنهضوا مسرعين وأوعبوا في الخروج**)) ؛ أي جمعوا العتاد والخيل والركاب وخرجوا بأشرافهم وخيلهم ورجِلهم .

((**ولم يتخلف من أشرافهم أحد**)) ؛ يعني جميع الأشراف والأعيان وكبراء القوم خرجوا .

((**سوى أبي لهب فإنه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دين**)) ؛ أبو لهب لم يشهد غزوة بدر ، وكانت من طريقتهم إذا لم يشهد الغزوة يستخلف مكانه من ينوب عنه ، ولكنه مات بعد الغزوة بأيام قلائل ، ضربته امرأة من المسلمين ممن هم في مكة بعصا في يدها فتسببت هذه الضربة في أن أصيب بمرض يسري في البدن ويقال أنه معدي ولهذا لما مرض تركه أولاده في بيته وكانوا في خوفٍ شديد من القرب منه ، ولم يتجرؤوا على القدوم عليه خشية أن يصابوا بالمرض الذي هو مصاب به فتركوه في بيته أياماً ، فأتاهم رجل وقال : كيف تتركون والدكم وقد جَيّف في البيت !! وألحَّ عليهم وقال أنا معكم ، فسحبوه ولم يغسلوه ولم يفعلوا به شيئا وألقوه قريباً من جبل ، وأهالوا عليه شيئاً من الصخور والحجارة وواروه بها ورجعوا وهم في أشد الخوف أن يصابوا بالداء الذي أصابه .

((**وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي فلم يخرج معهم منهم أحد**)) ؛ هؤلاء امتنعوا جميعهم من الخروج .

قال : ((**وخرجوا من ديارهم كما قال الله** ﷻ : ﴿ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ **وأقبلوا في تجمل وحنق عظيم على رسول الله** ﷺ **لما يريدون من أخذ عيرهم ، وقد أصابوا بالأمس عمرو ابن الحضرمي والعير التي كانت معه**)) ؛ وهذا مر معنا قريباً في بعث عبد الله ابن جحش ﷺ لما أصابوا عير هؤلاء التي كانت قادمة بالزبيب والأدم من جهة اليمن ، وكان ذلك في آخر يوم من رجب ، ففي ذلك البعث قُتل عمر بن الحضرمي ؛ فهم أيضاً من مقاصدهم الانتصار لعمرو والأخذ بالثأر منه هذا من جهة ، ومن جهة ثانية الانتصار لعيرهم التجارية القادمة من الشام .

قال : ((**فجمعهم الله على غير ميعاد**)) ؛ جمعهم الله في المنطقة المعروفة منطقة بدر على غير ميعاد ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما خرج لملاقاة هذه العير ولم يحتفل ولم يتجهز ولم يأخذ جميع ما كان متمكناً من أخذه من العتاد والخيل وغير ذلك ، وأيضاً كفار قريش لم يكونوا مرتبين ترتيباً مسبقاً لهذا الأمر وإنما جاءهم الصريخ فخرجوا مسرعين واجتمعوا في منطقة بدر ((**لما أراد الله** ﷻ **في ذلك من الحكمة كما قال الله تعالى:** ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾)) .

قال رحمه الله :

[**ولما بلغ رسول الله** ﷺ **خروج قريش استشار أصحابه ، فتكلم كثير من المهاجرين فأحسنوا ، ثم استشارهم وهو يريد بما يقول الأنصار ، فبادر سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله كأنك تعرِّض بنا ، فو الله يا رسول الله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ، فسِر بنا يا رسول الله على بركة الله ، فسُرَّ** ﷺ **بذلك وقال : ((سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين)) ، ثم رحل رسول الله** ﷺ **ونزل قريباً من بدر ، وركب** ﷺ **مع رجل من أصحابه مستخبراً ثم انصرف ، فلما أمسى بعث علياً وسعداً والزبير إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فقدموا بعبدين لقريش ، ورسول الله** ﷺ **قائم يصلي ، فسألهما أصحابه لمن أنتما ؟ فقالا : نحن سُقاة لقريش . فكره ذلك أصحاب رسول الله** ﷺ **وودُّوا أن لو كانا لعير أبي سفيان وأنه منهم قريب ليفوزوا به ،**

لأنه أخف مؤونة من قتال النفير من قريش لشدة بأسهم واستعدادهم لذلك ، فجعلوا يضربونهما ، فإذا آذاهما الضرب قالا : نحن لأبي سفيان ، فإذا سكتوا عنهما قالا : نحن لقريش . " فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال : " والذي نفسي بيده إنكم لتضربونهما إذا صدقا وتتركونهما إذا كذبا" . ثم قال لهما : أخبراني أين قريش ؟ قالا : وراء هذا الكثيب . قال : كم القوم؟ قالا : لا علم لنا . فقال : كم ينحرون كل يوم ؟ فقالا : يوماً عشراً ويوماً تسعاً : فقال ﷺ : " القوم ما بين التسعمائة إلى الألف"] .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه**)) ؛ وهذا فيه مكانة الشورى في الإسلام ، فالنبي عليه الصلاة السلام مع مكانته العظيمة ومنزلته العلية كان في كثير من الأمور يستشير صلوات الله وسلامه عليه أصحابه ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

((**فتكلم كثير من المهاجرين فأحسنوا**)) ؛ شاورهم في أمر المضي وملاقاة القوم والقتال ، فتكلم الكثير من المهاجرين ، أبو بكر وعمر وغيرهما رضي الله عنهم كلهم يقولون للنبي عليه الصلاة والسلام تمضي للقتال ونحن معك في ذلك، ومازال عليه الصلاة والسلام يستشير .

قال : ((**وهو يريد ما يقول الأنصار ، فبادر سعد بن معاذ** رضي الله عنه **فقال : يا رسول الله كأنك تعرِّض بنا**)) ؛ لأن المبايعة التي كانت بينه عليه الصلاة والسلام وبين الأنصار في العقبة الثانية كانت بيعة على حمايته ﷺ مما يحمون منه أنفسهم – ومرّ معنا "مما يحمون منه أزُرهم " : قيل أنفسهم وقيل أهليهم وأموالهم – ، ولم يُنص فيها على التوجه لملاقاة الأعداء ومقابلتهم وغزوهم ومقاتلتهم ؛ فقيل : لأجل ذلك كان عليه الصلاة والسلام يكرر هذه الاستشارة ، يريد أن يسمع رأي الأنصار في ذلك .

قال سعد ابن معاذ رضي الله عنه : ((**فوالله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فسِر بنا يا رسول الله على بركة الله**)) ؛ أي ليس عندنا أي تردد في المضي معك للقتال في سبيل الله .

((**فسُر ﷺ بذلك**)) ؛ سُرّ بهذا الكلام العظيم الذي يدل على يعني العزيمة الصادقة والرغبة القوية في نصرة دين الله تبارك وتعالى ومؤازرة الرسول ﷺ والمضي معه للقتال في سبيل الله.

قال : ((**فسُر ﷺ بذلك وقال : سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين**)) ؛ المراد بالطائفتين :

الطائفة الأولى : العير التي كانت مقصودة أصالة بخروج النبي ﷺ وصحبه الكرام من المدينة .

الطائفة الثانية : الجيش الذي خرج من مكة لنصرة هذا العير .

وسيأتي معنا أن الصحابة ﷺكانوا يودون أن تكون الملاقاة مع العير الذي قدِم من الشام ، لأنه عير تجاري ومعهم أموال طائلة للتجارة وليس معهم عدّة ولا عتاد ولا تجهز للقتال فكانوا يودون أن لو كان القتال مع غير ذات الشوكة ، وهم العير التي كانت قادمة من الشام ، لكن هنا يقول عليه الصلاة والسلام – وهذا تمهيد لما بعده –: ((**إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين**)) ؛ وهذا رواه ابن إسحاق بدون إسناد ، لكن قال المؤلف ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية له شواهد من وجوه كثيرة ؛ فذكر منها حديث أنس في المسند وهو في صحيح مسلم ، يقول أنس ﷺ كما في صحيح مسلم : ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا ، قَالَ فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ فَأَخَذُوهُ ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ فَيَقُولُ : مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ ، فَقَالَ نَعَمْ أَنَا أُخْبِرُكُمْ هَذَا أَبُو سُفْيَانَ ، فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ ، فَإِذَا قَالَ هَذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ انْصَرَفَ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ ، قَالَ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَاهُنَا هَاهُنَا ، قَالَ فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) .

وفي رواية للإمام أحمد وصححها ابن كثير ((فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ إِنَّمَا يُرِيدُكُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَا نَكُونُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام { اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ حَتَّى تَبْلُغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَكُنَّا مَعَكَ)) .

قال ابن كثير رحمه الله : ((**ثم رحل رسول الله ﷺ فنزل قريباً من بدر ، وركب معه رجل من أصحابه مستخبراً ثم انصرف ، فلما أمسى بعث علياً وسعداً والزبير إلى ماء ببدر يلتمسون الخبر ، فقدِموا بعبدين لقريش ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فسألهما أصحابه لمن أنتما ؟ فقالا : نحن سقاة لقريش ، فكره ذلك أصحاب رسول الله ﷺ**)) ؛ الصحابة رضي الله عنهم كرهوا ذلك وودوا أن لو كانوا لعير أبي سفيان وأنه منهم قريب ليفوزوا به ، والله عز وجل يقول في ذلك : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧] أي : ترغبون وتميلون وتحبون أن تكون الملاقاة مع العير التجارية القادمة من الشام لا مع الجيش الذي خرج من مكة ، وهنا قال : ((**فكره ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وودوا أن لو كانا لعير أبي سفيان وأنه** – أي أبو سفيان والتجارة التي معه – **منهم قريب ليفوزوا به ، لأنه أخف مؤنة من قتال النفير من قريش لشدة بأسهم واستعدادهم لذلك**)) ؛ العير ولا النفير ، النفير : جيش وعتاد ومتهيئين ومتجهزين للقتال ، وهذا عير قادمة للتجارة والعدد قليل والمال الذي معهم طائل .

قال : ((**فجعلوا يضربونهما ، فإذا آذاهما الضرب** – أي : هذان الأسيرين – **قالا : نحن لأبي سفيان ، فإذا سكتوا عنهما وسألوهما قالوا نحن لقريش**)) وهما صادقان في قولهما : نحن لقريش ، ولهذا جاء في الحديث قال : ((**فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال : والذي نفسي بيده إنكم لتضربونهما إذا صدقا وتتركونهما إذا كذبا**)) .

((**ثم قال لهما** – أي للعبدين – **أخبراني أين قريش ؟ قالا : وراء هذا الكثيب**)) ؛ الكثيب : هو الرمل الكثير . والمنطقة – كما هو معلوم – فيها مثل الجبال الرملية عالية مرتفعة ، وهذه معروفة وتُشاهد إلى الآن في منطقة بدر.

((**قال : كم القوم ؟** – أي كم عددهم ؟ – **قالا : لا نعلم . فقال: كم ينحرون كل يوم ؟** – يعني من أجل الطعام والأكل – **قالا : يوماً عشراً ويوماً تسعاً ، فقال : القوم ما**

بين التسعمائة إلى الألف)) ؛ يعني في مثل هذا الخروج قدَّر لكل مئة بعيراً واحداً ، فقال : ((القوم ما بين التسعمائة إلى الألف)) وكان هذا الحرز الذي قاله عليه الصلاة والسلام مطابقاً للعدد كما سيأتي لاحقاً .

قال رحمه الله :

[وأما بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء فإنهما وردا ماء بدر فسمعا جارية تقول لصاحبتها : ألا تقضيني ديني ؟ فقالت الأخرى : إنما تقدم العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك . فصدَّقها مجدي بن عمرو . فانطلقا مقبلين بما سمعا ويعقبهما أبو سفيان ، فقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست أحداً من أصحاب محمد ؟ فقال : لا ؛ إلا أن راكبين نزلا عند تلك الأكمة . فانطلق أبو سفيان إلى مكانهما وأخذ من بعر بعيرهما ففتَّه فوجد فيه النوى فقال : والله هذه علائف يثرب ، فعدل بالعير إلى طريق الساحل فنجا ، وبعث إلى قريش يعلمهم أنه قد نجا هو والعير ويأمرهم أن يرجعوا . وبلغ ذلك قريشاً فأبى ذلك أبو جهل وقال : والله لا نرجع حتى نرِد ماء بدر ونقيم عليه ثلاثاً ونشرب الخمر وتضرب على رؤوسنا القيان فتهابنا العرب أبداً ، فرجع الأخنس بن شَرِيق بقومه بني زهرة قاطبة وقال : إنما خرجتم لتمنعوا عيرهم وقد نجت ، فلم يشهد بدراً زهري إلا عمّا مسلم بن شهاب بن عبد الله والد الزهري ، فإنهما شهداها يومئذ وقُتلا كافرين . فبادر ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ، ونزل على أدنى ماء هناك ، فقال له الحُباب بن المنذر بن عمرو : يا رسول الله ، هذا المنزل الذي نزلته أمرك الله به ؟ أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ قال : " بل منزل نزلته للحرب والمكيدة " . فقال : ليس هذا بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من مياه القوم فننزله ونغَوِّر ما ورائنا من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ، فنشرب ولا يشربون. فاستحسن رسول الله ﷺ منه ذلك ، وحال الله بين قريش وبين الماء بمطر عظيم أرسله ، وكان نقمة على الكفار ونعمة على المسلمين ، مهَّد لهم الأرض ولبَّدها ، وبُنيت لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها].

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وأما بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء**)) ؛ ومر معنا قريباً أن النبي عليه الصلاة والسلام بعثهما يتحسسان ، فيذكر ابن كثير خبرهما هنا فيقول :

((**فإنهما وردا ماء بدر**)) ؛ من أجل التحسس وتحري الأخبار من عير قريش .

((**فسمعا جارية تقول لصاحبتها : ألا تقضيني ديني** ؟ -كان عليها دَيْن لدى صاحبتها - **فقالت الأخرى : إنما تقدم العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك**)) ؛ سمع هذه المحادثة بين هاتين الجاريتين .

((**فصدَّقها مجدي ابن عمرو**)) أي : قال صدقتِ أن العير تأتي غدًا أو بعد غد .

قال : ((**فانطلقا مقبلَين بما سمعا**)) ؛ أي بما سمعا من إحدى الجاريتين وتصديق مجدي ابن عمرو لها في ذلك بمقدَم عير أبي سفيان إما غداً أو بعد غد .

((**ويعقبهما أبو سفيان**)) ؛ فبمجرد أن انطلقا بهذا الخبر من هذا المكان جاء أبو سفيان بعد ذلك بقليل إلى البئر أيضاً للتحري عن النبي ﷺ وأصحابه ، لأن أبا سفيان لما سمع أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام خرج لملاقاة العير تقدَّم العير بنفسه ليتحرى عن الأمر .

((**فقال لمجدي ابن عمرو : هل أحسست أحداً من أصحاب محمد** ؟)) ؛ والنبي عليه الصلاة والسلام لم يرسل من أصحابه المعروفين أو من المهاجرين وإنما أرسل شخصين لا يُعرفان معرفة واضحة بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام ، فأرسل بسبس ابن عمرو وعدي ابن أبي الزغباء وهما كما نصَّ ابن كثير أنهما جهنيين ، وهذا فعله عليه الصلاة والسلام عن قصد . لأنه لو أرسل من أصحابه الخاصين لقال له نعم رأيت فلان وفلان من أصحابه .

((**قال : لا ؛ إلا أنَّ راكبين** - يقصد بسبس وعدي - **نزلا عند تلك الأَكَمَة**)) ؛ والأكمة : هي الموضع المرتفع ، وهي دون الجبل .

((**فانطلق أبو سفيان إلى مكانهما**)) ؛ يعني ينظر لعله يجد شيء حول المكان يستطلع منه عنهما شيئاً من الخبر؛ فالقوم أيضاً كان عندهم خبرة في تحري الأخبار ومعرفة الناس .

((**وأخذ من بعر بعيرهما ففتَّه**)) ؛ البعر : هو الفضلات التي تخرج من دبر البعير ، فأخذ بعرة من بعيرهما ففتَّه يريد أن يتعرف من فتِّه لبعرة البعير من أين ؟ لعله يجد شيئا يفيده في ذلك .

((**ففته فوجد فيه النوى**)) ؛ النوى : هو عُجْمة التمر .

((**فقال : هذه والله هذه علائف يثرب**)) يعني عرف من هذا أن النبي ﷺ فعلاً قريب من المنطقة .

((**فعدل بالعير إلى طريق الساحل فنجا**)) ؛ ولما اطمئن لهذه النجاة وأخذ طريق الساحل متجها إلى مكة ((**بعث إلى قريش يُعلمهم أنه قد نجا هو والعير ويأمرهم أن يرجعوا**)) ؛ يعني لم يبق حاجة إلى هذا الصريخ وإلى هذا الخروج لأن العير قد نجت فأرسل إليهم أن يعدلوا .

قال : ((**وبلغ ذلك قريشاً ، فأبى ذلك أبو جهل قال : والله لا نرجع حتى نرِد ماء بدر ونُقيم عليه ثلاثاً ونشرب الخمر وتضرب على رؤوسنا القِيان** – أي المعازف – **فتهابنا العرب أبداً**)) ؛ يعني ما دمنا تجهزنا وخرجنا من مكة وتهيئنا للملاقاة لن نرجع ، سنذهب إلى بدر ونقيم في المكان لمدة ثلاث أيام وغرضه من ذلك كما يقول : حتى تهابنا العرب أبداً .

قال : ((**فرجع الأخنس ابن شَرِيق بقومه من بني زهرة قاطبة وقال : إنما خرجتم لتمنعوا عيرهم وقد نجت**)) يعني ما أصبح الآن حاجة لهذا الخروج .

((**فلم يشهد بدراً زهري إلا عمّا مسلم ابن شهاب ابن عبد الله والد الزهري ، فإنهما شهدا يومئذ وقُتلا كافرين**)) ؛ أما عداهما من بني زهرة فإنه لم يقدُم أحد .

قال : ((**فبادر ﷺ قريشاً إلى ماء بدر فنزل على أدنى ماء هناك**)) ؛ أي أقرب ماء هناك إلى جهة المدينة ، وهذا يعني أن كفار قريش إذا قدِموا سيجدون ماء أمامهم إلى جهتهم .

((**فقال له الحباب ابن عمرو**)) ؛ كذا في الأصول للكتاب ، والذي في البداية والنهاية وكتب الصحابة والسير الحباب ابن المنذر ابن الجموح ، ونسَبُه في تاريخ الإسلام للذهبي : الحُباب ابن المنذر ابن عمرو ابن الجموح ، فيحتمل أن يكون في هذه النسخة سقط الحباب ابن المنذر ابن عمرو .

((**فقال يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته أمرك الله به ؟ أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟**)) ؛ وهذا السؤال جميل جداً ، يعني هل هذا المنزل الذي نزلته يا رسول الله عن أمر ووحي جاءك من الله بأن تنزل فيه ؟ أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ ؛ إن قال له النبي

ﷺ نعم نزلته عن أمر من الله ، لن يتكلم بشيء لأنه لا اجتهاد مع النص ، فقدَّم بهذه المقدمة .

((**فقال : بل منزل نزلته للحرب والمكيدة . فقال : ليس هذا بمنزل**)) ؛ يعني هناك ما هو أولى منه .

((**فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من مياه القوم فننزل فيه ، ونُغَوِّر ما ورائنا من القُلُب**)) ؛ القُلُب : جمع قليب ، والقليب هو بئر الماء ، ومعنى نغوِّرها : أي ندفنها ونطمرها بحيث إن احتاج هؤلاء للماء لا يجدون مورداً.

((**ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون**)) ؛ فكان هذا رأياً مسدداً ذكره الحباب رضي الله عنه .

وقصة الحباب أوردها ابن إسحاق قال : " حُدِّثت عن رجال من بني سلِمة " وهذا فيه انقطاع وجهالة ، ورواه الحاكم من حديث الحباب ابن المنذر وسكت عنه ، وقال الذهبي : هذا حديث منكر.

قال : ((**فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك ، وحال الله بين قريش وبين الماء بمطر عظيم أرسله ، فكان نقمة على الكفار ونعمة على المسلمين ، مهّد لهم الأرض ولبدها**)) ؛ يعني أنزل الله ﷻ تلك الليلة أمطار ، وكانت إلى جهة الكفار أمطار غزيرة مؤذية ، وكانت بالنسبة للمؤمنين أمطاراً لطيفة منعشة وفيها تثبيت الله ﷻ للمؤمنين والربط على قلوبهم وتمهيد الأرض وتهيئتها لهم ، فكانت هذه نعمة على المسلمين ونقمة على الكفار .

قال : ((**وبُنيت لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها**)) ؛ العريش : هو الشيء المرتفع ، فبني له عليه الصلاة والسلام عريش يكون فيها صلوات الله وسلامه عليه ، وكان معه في هذا العريش أبو بكر وحده ، ولهذا قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية : " وهذه خصوصية للصديق ، حيث هو مع رسول الله ﷺ في العريش كما كان معه في الغار " .

قال رحمه الله :

[**ومشى ﷺ في موضع المعركة ، وجعل يريهم مصارع رؤوس القوم واحداً واحداً ، يقول: " هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان " . قال**

عبد الله بن مسعود : فو الذي بعثه بالحق ما أخطأ واحد منهم موضعه الذي أشار إليه رسول الله ﷺ].

****

قال : ((**ومشى ﷺ في موضع المعركة**)) ؛ مشى تلك الليلة في موضع المعركة صلوات الله وسلامه عليه .

((**وجعل يريهم مصارع رؤوس القوم**)) أي : كبراءهم وأعيانهم وأشرافهم واحداً واحدا ، يسميهم بأسمائهم وكل واحد يعيّن مكان مصرعه.

((**يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان**)) ؛ يضع يده عليه الصلاة والسلام يقول هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان .

((**قال عبد الله بن مسعود : فو الذي بعثه بالحق** – يقسم بالله العظيم – **ما أخطأ واحد منهم موضعه الذي أشار إليه رسول الله ﷺ**)) ؛ وهذا نظير قول أنس بن مالك رضي الله عنه المتقدم في صحيح مسلم : ((فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) .

قال رحمه الله :

[وبات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي إلى جذم شجرة هناك ، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان ، فلما أصبح وأقبلت قريش في كتائبها قال ﷺ : " اللهم هذه قريش قد أقبلت في فخرها وخيلائها تحادُّك وتحادُّ رسولك " . ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ولا يكون قتال ، فأبى ذلك أبو جهل ، وتقاول هو وعتبة ، وأمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دم أخيه عمرو، فكشف عن إسته وصرخ : واعمراه ! واعمراه ! فحمي القوم ونشبت الحرب] .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وبات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي إلى جِذم شجرة**)) ؛ "جذم شجرة " بالفتح والكسر للجيم ، وجِذم الشيء : أي أصله ؛ فبات عليه الصلاة والسلام يصلي إلى أصل شجرة ، يعني جعلها أمامه إلى جهة القبلة . جاء عن علي رضي الله عنه قال

: " وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ " ؛ وهذا فيه الفزع إلى الله ﷻ بالصلاة ((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى)) ، فأمضى تلك الليلة عليه الصلاة والسلام يصلي ويناجي الله ﷻ ويسأله ويلح عليه تبارك وتعالى ((**وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان**)).

((**فلما أصبح وأقبلت قريش في كتائبها قال ﷺ : اللهم هذه قريش قد أقبلت في فخرها وخيلائها تحادك وتحاد رسولك**)) ؛ يطلب من الله ﷻ أن ينصره عليهم وأن يخزي القوم الكافرين .

قال : ((**ورام حكيم ابن حزام وعتبة ابن ربيعة أن يرجعا بقريش**)) ؛ جاءهم من خوَّفهم من جيش النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وذكر لهم حال أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وأنكم أصبتم منهم ما أصبتم في مكة وتعرضتم لهم بأنواع من الأذى والظلم والبغي والعدوان ، فأتاكم قوم لا يهابون الموت ، فرام حكيم ابن حزام وعتبة ابن ربيعة – وهذان من رؤوس قريش – رغبا وطمعا أن يرجعا بقريش ولا يكون قتال . وسيأتي معنا أن عتبة ابن ربيعة من أول من قُتِل من كفار قريش .

((**فأبى ذلك أبو جهل وتقاول هو وعتبة**)) ؛ يعني حصل بينهم تراد وتجاذب في الحديث حول هذا الأمر .

((**وأمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دم أخيه عمرو**)) ؛ لما صار التقاول والأخذ والعطاء قال أبو جهل لأخي عمرو بن الحضرمي أطلب الثأر لأخيك الذي قُتِل في بعث عبد الله ابن جحش المتقدم.

((**فكشف عن أُسته**)) ؛ أي كشف عن عورته وصرخ : واعمْراه ! واعمْراه ! يندب أخاه عمرواً ويطلب الثأر له

((**فحمي القوم ونشبت الحرب**)) ؛ يعني انتهت المقاولة والأخذ والرد الذي كان بين عتبة ابن ربيعة وأبو جهل.